دين ضد الدين

دين ضد الدين

(مختصر)

د. شريعتي

إعداد

حياة شمس الدين

مقدمة الناشر

عندما تتكلَّم عن علي شريعتي، لا بد أن تتكلّم عن الإسلام الأيديولوجيا من ثورة وفكر وحضارة.

طرح علي شريعتي فهماً متكاملاً للدين لأن الإسلام عقيدة متكاملة لكل زمان ومكان.

وحاول أن يطهِّر الفكر الإسلامي من الجمود والإحتكار.

وكتابهُ «**دين ضد الدين**» هو أقوى كتبه.

قالوا في علي شريعتي

الإمام الخميني قال:

أثارت أفكار علي شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء، ولكنه لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب إلى الإسلام وخاصة المثقفين.

السيد أحمد الخميني قال:

إن ما قدّمه علي شريعتي كان عظيماً وهو لا يزال معلّم الثورة الإسلامية.

السيد الخامنئي قال:

كان الدكتور علي شريعتي صلب العقيدة وعاشقاً لكل ما هو مقدَّس في الإسلام، وقد واجه المستغربين والتابعين للأجنبي وكل ما يأتي من الخارج يريد تفتيت الأمة.

السيد موسى الصدر قال: وقد صلى على جثمان شريعتي في دمشق سنة ١٩٧٧م

قال: الدكتور علي شريعتي هو إيراني من قرية «مازينان» تخرَّج من جامعة السوربون في فرنسا، واختصاصه هو «علم الاجتماع الديني».

عاد إلى إيران وكان يعطي دروساً في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحوَّل إلى داعية ديني.

له أكثر من مئة وخمسون كتاباً وهي محاضرات كانت تدوم أربع ساعات وخمس وست وسبع ساعات إرتجال تسجَّل وتطبع وهو أديب شامخ، فكره إسلامي ونضالي منفتح، كانت دعوته تقدمية ثورية وليست مؤسساتية أي ليس الإسلام دكاناً للكسب. الدكتور علي شريعتي كا أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم، أفكاره قيّمة، يحضر دروسه الإسبوعية حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيون ومتخرجون.

حارب الحكم في إيران علي شريعتي، وحاربه كذلك مجموعة من رجال الدين الذين يعتبرون الإسلام حكراً عليهم وهم وحدهم يفهمون الدين ولا يحق لأحد غيرهم أن يفهمه. هذا الرجل كان مصدر إلهام لكثير من الحركات الإسلامية ومن جملتها حركتنا.

والتيار الذي يؤيد علي شريعتي تياراً ساحقاً من الشباب المسلم في إيران وهو أقوى من التيارات الحزبية كلّها.

الدين ضد الدين

ربما يبدو هذا العنوان غامضاً، لأن قناعة الناس بأن الدين كان دائماً ضد الكفر، ولكن الحقائق التاريخية تؤكد عكس ذلك التصوُّر السابق، لأن الدين لم يكن يواجه إلا بالدين خلافاً للتصوُّر الساذج الذي نحمله.

فعلى مدى التاريخ لم تخلُ المجتمعات البشرية في جميع مراحلها من دين أبداً. صحيح أننا نرى في القرون المتأخرة حيث نمت مظاهر المدنية والفكر والفلسفة، أشخاصاً ينكرون وجود الخالق أو المعاد، ولكن هؤلاء لم يرتقوا إلى طبقة أو فئة يعتدُّ بها.

خلال القرون الوسطى قبل ظهور المسيح كانت مدن الغرب والشرق لها طابع رمزي ينطوي على دلالات معينة، يتم إبراز هوية المدينة من خلال طريقة بناء معبدها، فلا بدَّ من وجود نبيّ مدفون في المنطقة التي توجد فيها المدينة، أو شخصية دينية صالحة أو حتى واقعة دينية من ظهور معجزة أو غيرها.

خلاصة الأمر، أنه لا بد من افتراض مبرر ديني وعقيدي لوجود مدينة أو نشوء كيان حضاري، وهذا ما يكشف عن حقيقة مفادها أن المجتمعات القديمة على اختلاف أنواعها وأنماطها تجتمع على أساس عنصر مشترك هو روح الدين الموجودة في ضمير الإنسان القديم مهما كان نوع المجتمع الذي ينتمي إليه قبلياً أو حضرياً أو بدوياً.

في ضوء ذلك فإن ما نفهمه من ذلك أن كلمة كفر وعدم الاعتقاد بما وراء الطبيعة والله والمعاد والغيب والمقدَّسات ليس له واقع، وأن جميع البشر متَّفقون على الإيمان بالمبادىء والأصول العامة.

وأما معنى الكفر الذي نفهمه اليوم، هو معنى مستحدث وطارىء ويعود إلى القرنين أو ثلاث القرون الأخيرة، أي ما بعد القرون الوسطى.

وهذا المعنى قام الغرب بتصديره إلى الشرق كبضاعة فكرية، وأصبح الكفر بمعنى عدم الاعتقاد بالله وبكل ما وراء الطبيعة والعالم الآخر.

بينما إذا ألقينا نظرة على تاريخ الإسلام ونصوصه القديمة، بل تاريخ جميع المذاهب والأديان عندما يتحدثون عن الكفر فلا يعنون بذلك الحالة اللادينية، لأن هذه الحالة لم تكن موجودة أصلاً.

إذن فالكفر هو نوع من الدين يطلقه أهل الأديان على من لا يدين بديانتهم، فكل دين يعتبر الآخر كافراً.

إن الذين قالوا إن الدين يتنافى مع الحضارة والتقدم وحرية الشعوب، هم يحكمون بحكم غير صائب، لأن أصحابه وقعوا في الخطأ ذاته الذي وقع فيه المتدينون، والسبب هو عدم القدرة على التفريق بين شكلين من الدين، ولأن الحكم ينطبق على نصف الحقيقة ويهمل الآخر.

الكفر

إن الكافر يغطي الحقيقة الناصعة في قلبه لأسباب كثيرة أهمها الجهل والإنتهازية، وهو لا يغطيها باللادين، بل بواسطة دين آخر.

الشرك

هل يعني الشرك عدم وجود الإله؟

كلا المشركون لهم آلهة كثيرة.

إن الذين وقفوا بوجه عيسى وموسى وإبراهيم هم مشركون وليسوا ملحدون، ولكن المشرك هو من يؤمن بآلهة كثيرة وعليه فإن المشرك يعد إنساناً متديناً وإن أخطأ الهدف وسلك الطريق الخطأ.

عبادة الأوثان

إن عبادة الأوثان نوع من الشرك، وأتباعهم يضعون التماثيل والأصنام لكي يتقرّبوا بها إلى المعبود الأصلي ويعتبرونها واسطة بينهم وبينه.

وقد استهدف القرآن كل أنواع الشرك وكذلك فعلت سائر الأديان السماوية. والشرك قد يكون ماديّاً وقد يكون غير مادي.

التوحيد

التوحيد يعني دعوة جميع البشر إلى عبادة قوّة واحدة، والسير نحو هدف واحد، والإيمان بوجود قدرة واحدة مؤثرة يستند إليها البشر في جميع نواحي الحياة.

ومن ينظر إلى هذا العالم نظرة كليّة يراه من خلالها كأنه جسد واحد، وأفراد البشر أفراد متساوين ومتماثلين لأنهم خلقوا بيد واحدة وعلى وتيرة واحدة.

وعلى الخط الآخر فإن دين الشرك يقود أصحابه إلى عداوة أديان التوحيد، ولذلك فإن قصص التوراة والقرآن تؤكد أن الأنبياء جاؤوا ليدعوا الناس إلى التوحيد وأن الذين حاربوهم هم المشركون، كحركة السامري وبلعم بن باعورا اللذان واجها رسالة النبيّ موسى عليه السلام.

السامري

بعد نجاح موسى في إقناع قومه بالتوجّه لعبادة الله الأحد وهجر عبادة الأوثان، ظهر السامري ليُحيي من جديد عبادة العجل، وقد اغتنم فرصة غياب موسى عن قومه فصنع العجل لهم ودعاهم لعبادته.

بلعم بن باعورا

كان لهذا الرجل مقام ديني في زمانه، وقد نهض لمعارضة دعوة موسى مستغلاً ثقة الناس به.

الفريّسيون:

كان سبب معاناة عيسى عليه السلام هي محاربة الفريسيين له وهم أنصار دين كان قائماً في ذلك الزمان ولم يكونوا ماديين ولا زنادقة ولا دهريين.

مشركوا مكة

والذين حاربوا نبيّ الإسلام كانوا جميعهم أصحاب عقيدة ودين، ويعتبرون أن أتباع محمد خرجوا عن دين آبائهم، وخرقوا الأصول والمقدسات وأنهم يريدون تحطيم الأصنام التي هي واسطة بين الله وعباده.

ومن بعد النبيّ استمرَّ هذا الشعار ولكن بشكل مختلف، كانت الحرب ضد روح الإسلام الحقيقي التي كان يمثله عليّ بن أبي طالب وبعض الصحابة.

من الذي واجه عليّاً؟ هل هم الكفّار ومن لم يكن لهم دين، وهل الشعار كان يدعو إلى إنكار وجود الله؟

بل هو الاعتقاد بنمط آخر من الدين في وجه النمط الأصيل، وهو الذي أدّى إلى نشوب المعركة تاريخياً بين آل النبي وآل أميَّة ومن بعدهم العباسيون.

على مرّ التاريخ كان ثمة دين توحيدي يدعو إلى عبادة معبود واحد هو خالق الكون وهو الذي يقف بوجه كل الحركات التي تدعو إلى عبادة الطاغوت، منذ أبينا آدم إلى النبيّ الخاتم إلى يوم القيامة.

وفي المقابل يحصل الشيء ذاته مع دين الشرك حيث يدعو أتباعه إلى الطغيان والتمرُّد على الإرادة الإلهية.

ماهيَّة الدين الثوري

إن أتباع الدين الثوري يتمتعون برؤية نقدية بكل ما يحيط بهم، ويشعرون بمسؤولية التغيير إلى الأفضل ولا يؤمنوا بالرضوخ للأمر الواقع.

وإذا لاحظنا حركة الأنبياء في المرحلة الأولى من الدعوة، فهي تتسم بنزعة ثوريَّة وتمرُّد على كل جور وفساد.

وإذا نظرنا إلى موسى عليه السلام كيف نهض بوجه أكبر طاغية في عصره وهو «فرعون» وبوجه أكبر ثريّ وهو «قارون»، وبوجه أكبر شخصية دينية منحرفة وهو «بلعم بن باعورا».

أما الطبقة المستذلَّة المستضعفة، فكانت مستعبدة من الأقباط.

وكان هدف موسى تحرير قومه من الأسر وإرشادهم إلى إقامة مجتمع يقوم على العقيدة، ورفض العبودية والقضاء على الطواغيت والمساواة والعدل بين الجميع.

ماهية الدين الآخر التبريري

هو القبول بالواقع، وتشويه العقائد الدينية وإقناع الناس بأن الله يريد ذلك لهم، وأن هذا قضاؤه وقدره الذي كتبه عليهم. والتاريخ يروي لنا، أن الإعتقاد بالقضاء والقدر والقول بالجبر هي أفكار ابتدعها بني أمية ومعاوية ليسلبوا الناس الشعور بالمسؤولية، ويحرموهم من الاحتجاج أو الثورة على الحكام الظالمين.

إن رسالة دين الشرك هدفها هو تبرير الوضع الموجود والمحافظة على تعدد الآلهة لكي يستمر التعدد الفئوي والطبقي والعرقي والقبلي.

إننا نرى الأقوياء يحصلون دائماً على الإمتيازات ولذلك ترى خلال التاريخ أن مؤسسي دين الشرك هم من الطبقات الاجتماعية الثرية والمترفة.

أنظروا إلى رجال الدين المجوس إبان الحكم الساساني، كيف كانوا يسيطرون على العائلة المالكة والعسكر.

لاحظوا القساوسة في أوروبا، والحاخامات من بني إسرائيل، والسحرة والكهنة، وزعماء الدين في إفريقيا وأستراليا كيف يهيمنون على الهيئة الحاكمة.

كانت نسبة الأملاك التي كانت في حوزة القساوسة في أوروبا أكثر من سبعين بالمئة وخلافاً لذلك، نرى الأنبياء يواجهون هذه الأديان التي برَّرت الظلم عبر التاريخ.

الدين أفيون الشعوب

العامل الرئيسي الذي يقوم عليه دين الشرك هو العامل الاقتصادي، ومن أجل المحافظة عليه يجب أن يبقى الجهل والخوف والتمييز الطبقي، وكل ما يقول الإلحاديون هو حقائق لا يمكن إنكارها، وإن قولهم «الدين أفيون الشعوب» هو قول صحيح لأنه ينطبق على أديان الشرك التي ترفع راية الدين.

المرجئة

المرجئة هم من يبرِّرون جريمة كل مجرم في المجتمع الإسلامي.

وفي هذه الأشكال من أديان الشرك يختفي التوحيد.

وعندما يبعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد، تتصدى لهم هذه الأديان، كما فعل الحاخامات مع موسى، وكما فعل الفريّسِيون مع عيسى بعد أن تواطؤا مع قيصر الروم الوثنيّ في وجه دين التوحيد وأتباعه.

ثم كيف تحوَّل القساوسة من رجال دين إلى مجرمين يرتكبون الجرائم في القرون الوسطى باسم الدين.

هل هذا هو الدين الذي بُني على الحب والوفاء والصبر والعفو الذي جاء به عيسى؟ كيف تحوَّل وعاد إلى حظيرة الشرك؟ وكيف صار الحرمان والشقاء هو قضاء وقدر من الله، وكل مخالفة للتغيير هي مخالفة لإرادة الله ومشيئته وعصياناً لأمره. إنه دين الشرك مهما كانت أسماؤه ومسمَّياته، هو الذي هيمن دائماً على التاريخ حتى لو سُمّيَ بدين التوحيد أو دين موسى وعيسى، أو ما اصطلح عليه بخلافة النبي أو خلافة بني العباس أو خلافة أهل البيت.

إن هؤلاء جميعاً جاؤوا بلباس الدين وباسم الدين والجهاد والقرآن.

إن الذين رفعوا القرآن على رؤوس الرِّماح هم القريشيون أنفسهم الذين حاربوا النبيّ للبقاء على عبادة اللّات والعزّى، ولكن باسم الإسلام ضربوا الدين وحاربوا الله ورسوله وانتصروا على عليّ، وبدأ حكم دين الشرك باسم خلافة

رسول الله وباسم القرآن كما في القرون الوسطى عندما تحوَّل دين موسى ودين عيسى اللذان جاءا بدين التوحيد ثم تحوّل دينهما إلى دين الشرك.

إن الأديان التي حكمت خلال التاريخ هي أديان تخديرية ورجعية ومحرَّفة، ولكن إذا تعرَّف الناس على الدين الحقيقي واتسعت رقعة الوعي والعلم ونشطت روح الانتقاد وطالب الناس بالعدالة، وانبعث الأمل ستُزلزل أركان دين الشرك، إن الأديان الإلهية تلبي حاجة الإنسان وتهديه إلى هدف معيَّن وحكومة خاصَّة تنسجم مع ميله الفطري إلى التكامل وحب الجمال والكمال والجلال المطلق.

وقد جاء الأنبياء الواحد تلو الآخر ليغيروا هذه الأديان التي تريد أن تُبقي على الجهل والظلم وجاؤوا بدين التوحيد واتباع القوانين الإلهية العادلة التي تعكس إرادة الله تعالى، لذلك كان الدين الجديد يتسم بالثورة والقضاء على العادات والتقاليد التي أصبحت ديناً يُعبد.

الله والناس

في بعض أجزاء التوراة والإنجيل التي سلِمت من التحريف وفي القرآن، نرى أن الله تعالى والناس في جبهة واحدة، وأننا نستطيع إستبدال كلمة الله بكلمة الناس في جميع الآيات القرآنية التي تعالج المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. مثال على ذلك تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فهل تعني هذه الآية أن الله يحتاج إلى من يقرضه وهو الغنيّ عن العالمين، بل المقصود بالآية هم الناس.

أتباع الطاغوت

وفي الجهة المقابلة يقف أتباع الطاغوت وهم المترفون الذين يشغلون المناصب والمواقع المهمة في المجتمعات ولا يلتزمون بالمسؤولية والواجبات، والذين يحكمون باسم الدين.

إن دين التوحيد لم يتحقق في أي برهة من التاريخ، بل بقي يواجه

الطواغيت، وظلَّ على شكل نهضة انتقادية عارمة كما فعل الشيعة فقد رفضوا الحكومات التي حكمت باسم الإسلام، وكانت أقرب إلى حكم كسرى وقيصر ولكن باسم خلافة رسول الله ﷺ.

المسؤولية التي تقع على عاتقنا اليوم هي مسؤولية الإنسانية جمعاء، أن نهتم بالدين ليس رجوعاً إلى الوراء بل مواكبة لحركة التاريخ.

الدين لم يصارع الكفر والإلحاد، والتاريخ يشهد على ذلك، لأن الناس على مر العصور كانوا متدينين، بحيث لو أردنا إعداد تحقيق عن تاريخ أي مجتمع لوجدنا أن هذا التحقيق تبدَّل بشكل عفوي إلى تحقيق عن الحضارة الدينية لذلك المجتمع.

فهل يمكن التحدث عن الحضارة الهندية بدون التطرق إلى الدين الودائي والبوذي؟

وهل يمكن التحدث عن الحضارة الصينية بدون ذكر «لاوتسو» و«كنفوشيوس» اللذان هما جوهران الحضارة الصينية.

لم يكن الدين يقتصر عبر التاريخ على الأخلاق والفلسفة فحسب، بل كانت الحالة الاقتصادية والمادية والطابع المعماري في المدن القديمة كلها دينية أيضاً.

وإن سألنا من الذي وقف في وجه الأنبياء من آدم إلى خاتم الأنبياء؟ والجواب هو أن الكفر والشرك، وليس الزندقة والإلحاد.

ولذلك يأمر الله ورسوله أن يقول للكافرين الذين حاربوا الإسلام: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وفي آخر النص يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معنى ذلك أن الصراع كان بين دين ودين.

هيمنة دين الكفر على التاريخ

من كان المنتصر في هذا النزاع في الحقيقة؟ والجواب هو أن النصر كان حليفاً دائماً لدين الكفر.

لم يستطع الأنبياء أن يطبقوا دينهم بشكل كامل في أي مجتمع ولا في أي

برهة من التاريخ كان هؤلاء الأنبياء يظهرون على شكل نهضة وثورة على الدين الحاكم، ولكن دين الحق لم يتجسَّد بشكل واقعي في أي مجتمع منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا.

إن دين التوحيد هو دين «**الله والناس**»، وعبارة «**مال الله**» تعني مال الناس لقد واجه أبا ذر معاوية وقال له: إنك تريد أن تأكل مال الناس بدعوى أن المال مال الله وأنك خليفة الله في أرضه ولكن لا يحق لك أن تأكله وتهبه لمن شئت، لأن الله والناس في صف واحد والناس هم عيال الله كما يقول الرسول. ويقف أمام هذا الشعار ويحاربه المترفون والمتسلطون على رقاب الناس والمسيطرون على ثرواتهم.

الربُّ والخالق

الأديان الحقيقية تعتبر أن الله خالق الكون، ولكن عبادة الأصنام وعبدة الأشخاص كانوا يدَّعون أن فرعون ربُّهم الأعلى وأن الآلهة هي إربابٌ للناس، والربّ هو الصاحب والمالك، ولا يعني الخالق.

المدينة المنوَّرة رمز المجتمع المثالي

لا نجد في التاريخ البشري مجتمعاً قد بُني على أساس الدين الإلهي سوى مجتمع المدينة المنورة في حياة رسول الله ﷺ وأن عمر هذا المجتمع لا يتجاوز العشر سنوات، مقابل خمسين ألف سنة من التاريخ. إن الفرصة لم تسنح لدين «الله والناس» إلا في هذه السنوات العشر، وقد بنى هذا الدين نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وتربوياً ونظَّم العلاقات الفردية والاجتماعية.

لقد استطاع هذا الدين أن يبني هيكلية هذا النظام، ولكنه لم يتمكَّن من تطبيقه بشكل كامل، لأن سكان المدينة لم يقدروا تغيير تربيتهم الفطرية والاجتماعية المبنيَّة على أساس الجاهلية، ولم يستطيعوا أن يحافظوا على ذلك النظام العظيم، ولأن أعداء هذا النظام سيطروا على كل شيء بعد مرور عشرين سنة فقط.

ونرى هذه الحالة في كل المجتمعات، وفي كل المراحل التاريخية.

رجال الدين المجوس

كان هناك ثلاثة أنواع من النار المقدَّسة وتُعدّ كل واحدة من هذه النيران، مظهراً من مظاهر العالم المطلق وهو إله الخير عند المجوس.

1 ـ في أذربيجان للملوك والأسرة المالكة.

2 ـ في القلعة القريبة من «سيزوار» للمزارعين والفلاحين وأصحاب الحِرف.

3 ـ ونار بالقرب من شيراز.

النار المقدّسة ليست متشابهة، لأن إله المجوس شاء أن تكون لكل طبقة إلهاً وناراً خاصة بها.

الدين في إيران

كان الملوك والأمراء في العهد الساساني متفقون بشكل كامل مع علماء الدين وكهنة المعابد، وكان النظام الطبقي سائداً، ولا يستطيع أي شخص من الطبقة السفلى الإرتقاء إلى الطبقة العليا بأية حيلة أو معجزة.

كانت العائلة المالكة والنبلاء من الطبقة الأولى وإلى جانبهم رجال الدين المجوس في الطبقة الثانية، والجميع كانوا من الأغنياء لا همَّ لهم سوى استغلال الناس، وأما الطبقة الثالثة فكانت من الصناعيين وأصحاب الحِرف والعسكر والمزارعين وهي طبقة محرومة وتنتمي إلى عرق نجِس.

إن ابن الإسكافي في العهد الساساني كان يُحرَم من الدخول إلى المدرسة، يبقى هو وأبناؤه وأحفاده يمارسون هذه المهنة إلى أبد الدهر، وحتى لو كانوا من النوابغ.

الدين يبرِّر دائماً هذه الفوارق مستغلاً جهل الناس وتخلُّفهم الفكري.

في أثينا مثلاً: كانت الأسر الشريفة محصورة في عشرين أسرة.

وكان هؤلاء الطغاة والجبابرة يخمدون احتجاج الناس ويستخدمون العنف في مواجهتهم، ويعملون على وأد أي نهضة وإخماد أي ثورة، ويقولون لهم عليكم أن تصبروا، لأن كل ما يحصل هو بمشيئة الله.

وفي مقابل هذا الدين التخديري التبريري الماكر يأتي دين التوحيد وهو دين الأنبياء الرعاة والعمّال، وهم الذين عجن الحرمان والجوع طينتهم.

إن محاربة دين الشرك عندما يكون ظاهراً ومكشوفاً، هو أمر سهل، ولكن محاربته عندما يكون مخفيّ وراء ستار دين التوحيد كما حصل لدين الإسلام، فهو صعب وملتبس، لقد استطاع الرسول ﷺ أن ينتصر على دين الشرك والطاغوت لأنه كان ظاهراً ومعلناً، ولكن الإمام عليّ لم يحقق الانتصار في هذه المهمة، مع أن الدين واحد والقرآن واحد.

فقد كان أبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب يقولون صراحة أنهم يريدون عبادة الأوثان والمحافظة على التجارة والشرف والعلو على قبائل العرب.

أما دين التوحيد بقيادة الإمام عليّ، فلم يكن يحارب قريش التي تدافع عن الأصنام ولكن كان يحارب المسلمين الذين يحملون راية التوحيد، وقد رُفع القرآن على الرّماح، وفتحت البلدان باسم الإسلام وبنيت المساجد العظيمة، وصار العلماء والقضاة تابعين ومدافعين عن شعائر دين الإسلام، وهم في الحقيقة يمارسون دين الشرك بعينه.

إن محاربة دين الشرك الملتبس والمستتر بلباس التقوى والتوحيد لا أحد يستطيع الإنتصار عليه حتى «عليّ».

في تاريخ المجتمعات نرى قادة وقفوا بوجه العدو الأجنبي المستعمر، وهزموه وطردوه من بلادهم رغم قوة هذا العدو وجبروته، ولكننا نرى أن هؤلاء القادة والأبطال ذاتهم يخفقون في مواجهة الأعداء في الداخل.

إن الأديان التي حكمت عبر التاريخ في شرق العالم وغربه كانت جميعاً من

أديان الشرك حتى لو حكمت باسم دين التوحيد، وقد بُعِث الأنبياء لمحاربة هذه الأديان.

والمفكرون والمثقفون اليوم يحملون على عاتقهم مسؤولية الإستمرار في خط الأنبياء، وهي محاربة الشرك من أجل إحياء الدين الذي لم يتحقق في التاريخ، عليهم أن يرفعوا النقاب عن الدين الحقيقي، لأن الدين الذي يبرِّر الفقر والعبوديَّة ويخدِّر الناس ويخدعهم ويُحرَّف إيمانهم الفطري لصالح الفئة الحاكمة هو دين شرك.

حتى لو حكموا باسم دين التوحيد، وقد بُعِث الأنبياء لمحاربة هذه الأديان.

الرسالة التي حملها المفكرون الأحرار في أوروبا في صراعهم مع دين القرون الوسطى قد أنقذت أوروبا من التخلُّف والرجعية، وأما رسالة الأنبياء ستبقى على عاتق كل أنصار دين الحق في المستقبل وعلى مدى التاريخ.

إن رسالتنا اليوم هي استمرار لرسالة الأنبياء الذين وقفوا بوجه وعّاظ السلاطين والمترفين والمتسلطين.

ولكن علينا أن لا نصدر حكماً واحداً على كل الأديان، لأننا نكون قد حكمنا على فئتين متناقضتين بحكم واحد، وهذا ليس حكماً علمياً ولا ينسجم مع العقل والواقع والأخلاق.

إن الأوروبيون حكموا على دينهم بعد أن ناضلوا وعملوا ودرسوا وحقَّقوا ثلاثمائة عام من الزمن وأدركوا في نهاية الأمر أنَّ دين النصرانية ومن حمله من رجال الدين النصارى هم من سبَّب لهم كل هذه المصائب لبلادهم.

ولكننا لا نستطيع أن نقلِّدهم، لأن الدين مختلف وحاملوا الدين مختلفون.

لنرى مثلاً أبو ذر الغفاري، وجه الإسلام الطاهر الذي تربى على يد النبي، والذي لم يكن يملك شيئاً، لا مالاً ولا جاهاً ولا ثقافة، ولم يتأثر بأي شيء، كان روحاً إنسانية نقية خالية من كل شائبة.

كان هذا الرجل من صنع هذا المعمل وصنع هذا القرآن وهذه الرسالة يقول أبو ذر: «عجبت لمن لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه». إن كل من هم في هذا المجتمع مسؤول عن الفقر والجوع، لأن الناس جميعاً مسؤولون بشكل أو بآخر، مسؤولين عن الفقر والجوع ويقول: «دستيوفسكي» إذا حدثت جريمة قتل في مكان ما، فإن أولئك الذين لم يشتركوا في هذه الجريمة ستكون أيديهم ملطخة بدم القتيل.

نعم... هكذا كان يا أخي

أريد أن أقول لكم خاطرة ترتبط بشخصيتي، أنا أنتمي إلى شريحة مثقفة بثقافة معاصرة ولكنها مرتبطة بالدين، ولكني أشعر في قرارة نفسي أن آبائي ينحدرون من الفقر والبؤس.

ومع ذلك فقد وقع اختياري على الحضارة كحقل علمي أواصل فيه دراستي وتحصيلي وكنت دائماً شغوفاً بآثار الحضارة والتمدن البشري.

أحب عندما أذهب إلى مدينة أو بلد، يوجد فيها آثار قديمة، أن أطّلع عن كثب عن الدور الحضاري الذي لعبوه في بناء هذه الحضارة الإنسانية.

في اليونان ذهبت إلى معهد، شاهدت أبنيته العظيمة وقد بهرتني تلك العظمة والجلال.

وكنت إذا سافرت إلى آسيا وأوروبا وأفريقيا أذهب مباشرة إلى رؤية الآثار العظيمة لتلك الأصقاع، فكل واحدة من هذه الآثار الرائعة هي كنز لا يُقدَّر بثمن وهو يمثِّل حصيلة كفاح النوع البشري على هذه الأرض ومدى انتصار الإنسانية في صراعها الدؤوب مع الطبيعة على مر التاريخ.

في روما متاحف الفنون والمعابد الشاهقة والقصور الفخمة، وفي الشرق الأقصى كالصين وكمبوديا وفيتنام، آثار شامخة شيَّدتها أياد بشرية وحوَّلتها إلى معابد لآلهة السماء ومن يمثلها على وجه الأرض. كنت أطير زهواً ودهشة لتلك الآثار والمعالم...

إلى أن قررت أن أذهب هذا العام إلى أفريقيا لرؤية الأهرام الثلاثة في مصر وفجأة انهار كل ذلك الشوق وتبددت الأواصر التي تربطني بآثار الماضي وتشدني إليها بقوَّة، وجرفت مياه النيل معها كل التصورات التي كنت أحملها في رأسي، واكتشفت أن كل ما كنت أؤمن بأنها مظاهر تمدُّن وحضارة إنسانية، ما هي إلا سراب خادع دام آلاف السنين، وقد بات الآن بنظري هشيماً تذروه رياح مصر.

ما إن وطئت قدماي أرض مصر حتى عزمت على زيارة آثارها التاريخية العجيبة، وهي الأهرامات، إحدى العجائب الدنيا السبع، وقد كدت أطير فرحاً عند رؤيتها وكان في صحبتي أحد الأدلّاء لأستفيد من توضيحاته حول هذه الأهرامات وطريقة بنائها وتاريخها وأسرارها..

أشار الدليل إلى تلك الأهرامات وبدأ يروي قصتها وكيف بنيت:

قال: قبل زهاء خمسة آلاف سنة حمل العبيد ثمان مائة (800) مليون صخرة كبيرة تزن الواحدة منها طنَّين تقريباً وجاؤا بها من أسوان ليشيدوا بها تسعة أهرامات، ستة منها صغيرة وثلاثة كبيرة وهي التي اكتسبت الشهرة العالمية الفريدة.

وقد نقلت هذه الصخور مسافة حوالي (1000) كلم من أسوان إلى القاهرة ورصفت على بعضها لتشيَّد بواسطتها مبانٍ ضخمة ولتصبح فيما بعد أضرحة لأجساد الفراعنة وزوجاتهم بعد تحنيطهما بالمومياء المصرية، كانت القاعدة المركزية هي غرفة من أربعة جدران للضريح والخامسة هي القاعدة للضريح والسادسة هي السقف، وفوق هذه الغرفة عدد كبير من الصخور الأخرى المتراكمة إلى أعلى الهرم، ولك أن تتخيل كيف نقلت هذه الصخور الضخمة التي قاومت وصمدت خمسة آلاف عام حتى يومنا هذا.

أخذتني الدهشة وأنا أنظر إلى هذا البناء الرهيب، وفجأة وقعت عيناي على مجموعة من الصخور المركومة فوق بعضها على مسافةٍ تبعد حوالي 400 متر، فسألت الدليل عنها فلم يكترث بسؤالي وأجابني: لا شيء، ولكني أردت أن أعرف كعادتي في البحث عن كل ما هو مهجور ومغيَّب، إن كان من الكتب أو

الروايات والآثار التاريخية أو الأفكار، وعدت أسأل الدليل، فأجاب علي: إنها أخاديد حفرت في بطن الأرض لعدة كيلومترات لتكون مقابر للعبيد الذين شيّدوا هذه الأهرامات.

كان العبيد يجرّون هذه الصخور مسافة ألف كيلو متر، وكانت أرواحهم تزهق تحتها زرافات زرافات، والنظام في ذلك الوقت يلقي بأشلاء العبيد الممزقة في هذه الحفر ثم يستخدم غيرهم.

يقول: «شوارتز» أن وجود العبيد بكثرة في ذلك الوقت، عطَّل من البحث عن اختراع أو أسلوب آخر كالعجلة أو غيرها.

ويومياً كانت التقارير ترفع إلى فرعون بموت مئات العبيد، ومن ثم يؤتى بأياد جديدة من إفريقيا السوداء، وهؤلاء العبيد لم يتعودوا على قساوة الظروف والبيئة، فترتفع معدلات الضحايا والوفيات، بالإضافة لانتشار الأوبئة والطاعون بينهم، وكانت الإحصائيات مروِّعة تكشف عن عملية إبادة جماعية لأولئك العبيد.

ويضاف إلى ذلك، كان فرعون وأرباب العمل يتسابقون في اضطهاد العبيدوتسخيرهم للعمل أكبر مدَّة ممكنة دون وازع ضمير أو أي قانون يحميهم.

كان فرعون يؤمن بما وراء الطبيعة، وكان يدفن هؤلاء العبيد إلى جوار الهرم لكي يواصلوا خدمته في مماتهم كما كانوا يخدمونه في حياتهم ذهبت إلى مقابر العبيد، لم تكن المسافة بأكثر من عدة أقدام بين الأهرامات وبين مقابر العبيد، وهي المسافة التي تفصل بين الجلاّد والضحية.

أن رابطة وصلة رحم تربطني بهؤلاء التعساء والمظلومين، وأن بيني وبين تلك الأهرامات كراهية ونفور.

صحيح أني جئت من بلاد، وهم جاؤا من بلاد أخرى، وأنا من عِرقٍ وهم من آخر ولكني اليوم أصبحت سليلاً لهذه الطائفة من بني البشر.

وأدركت أن كل الآثار العظيمة على طول التاريخ والحضارات التي قامت، لم تقم إلا على أشلاء أسلافي.

سور الصين العظيم، وجميع القلاع والأبراج كلها قد رأت النور على دماء أجدادي ولحمهم .

كان ذلك أول درس تعلَّمته عن الحضارة والتمدن وأن ما يُعلَّم ويدرَّس في الكتب إنما هو كذبٌ محض، وأن ما بُني باسم الفراعنة والمترفين والأغنياء مثل قارون ورجال الدين المنافقين مثل بلعم بن باعورا.

وأن جميع العلوم الإنسانية التي تدرَّس من الحضارة والتاريخ في المدارس والمعابد هي كذب وافتراء، وهذه الحضارة يجب أن تدرَّس هاهنا تحت هذه الصخور وهي مدفونة مع هؤلاء المعذّبين.

وتلك الأهرامات الثلاثة، ليست سوى الاستبداد والاستعمار، وهي التي فعلت هذه الفاجعة لتكون دليلاً على سيرة الإنسان المظلوم وعلى مصيره المحتوم.

أشكركم يا إخواني لقد علمتموني أن كل ما تعلمته في السابق من علوم وتاريخ سأدفنه تحت هذه الأهرامات وأبدأ من جديد.

نعم بعد خمسة آلاف عام مضت، كان إخواني تحت نير سياط الجلادين وصخورهم، وهم لا يعلمون بما حصل بعد هذه السنين الطويلة، ولا شك أنهم يريدون أن يعلموا.

فأخذت قصاصة من ورق وكتبت رسالة اإلى واحد من مئات المقبورين في ذلك المكان قرب الأهرامات، وقدَّمت تقريراً موجزاً عما جرى في هذه السنين الطويلة:

رحت أنت يا أخي ونحن لم نزل نبني الحضارات العريقة، ونتهيأ من أجل فتوح جديدة وافتخارات ومآثر، كانوا يقدمون إلى قرانا وضيعنا ويجرُّونا كالبهائم وراءهم لنبني لهم حضارات ويأخذونا إلى الحرب لنحارب أناساً لا نعرفهم ولا نكرههم، ليكون لهم النصر والمجد، ولنا الموت والخراب والبيوت المهدَّمة، لقد بدَّل الطغاة أساليبهم وتكرّرت المأساة، اليوم نحمل الصخور لا لقبورهم ولكن لقصورهم وأسوارهم، تلك الصخور التي امتزج بناؤها بدمنا ولحمنا.

أخي.. كنا ننتظر أي نافذة يطل منها النور، فكانت نهضة رجال عظماء مثل زرادشت وبوذا وكنفوشيوس الحكيم ولاوتسو ولكن هؤلاء العظماء لم ينقذونا من الظلم والرق وكان بعضهم أصدقاء للحكام والظالمين، وكان بعضهم يعتكف ليخرج بأفكار عظيمة إلى الجياع والمحرومين، ولكن لم يتغير شيء فما زلنا نحن المهزومين والمستضعفون على طول التاريخ.

حتى باسم آلهة الأديان كانوا يسرقون وينهبون، ويقدموا أطفالنا قرابين على مذبح المعابد والهياكل وتحت أرجل الأصنام لقد اغتصب الكهنة المجوس معظم أراضينا وهكذا فعلت الكنائس.

ساقونا لنشيّد المعابد والقصور الضخمة وكان الهلاك من نصيبنا والنصرة والعزَّة لتجار الدين وارثي فرعون وقارون.

ولكن يا أخي علمنا فجأةً أن رجلاً هبط من جبل وركن إلى معبد وصاح مزمجراً:

«إني رسول الله».

وظنَّنا أنها خدعة أخرى!!، ولكنه قال: إني بُعثت من قِبَل الله وهو يقول لكم: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

لقد آمنت به وأيقنت برسالته لأنه جمع شمل إخواني ورفاقي الفقراء!

بلال، العبد الحبشي، سلمان، أسير من إيران، أبو ذر الغفاري البدوي الفقير، سالم غلام زوجته خديجة، وآخرين من البؤساء والمظلومين والمشردين، وقد أصبحوا قادة قومهم.

آمنا به لأنه كان مثلنا، لم يكن له قصراً ولكن بيته كان من حجرتين أو ثلاثة وهو قد بناه بنفسه، وسقفه من الخشب وسُعف النخل، وقد عاش في هذا البيت الصغير ومات فيه.

عاش معه وحوله الفقراء والمستضعفين حتى راح في غفوته السرمدية وتركنا.

وفجأةً رأيت المعابد العظيمة تشق عنان السماء باسم النبي الأمي، والسيوف التي كتب عليها آيات الجهاد تهدد وجودنا في كل حين.

وجاء من بعده خلفاء مسخوا القرآن وصاروا يأخذون العبيد لبناء القصور وللقتال والموت باسم الجهاد في سبيل الله، واستولوا على كل ما نملك باسم الزكاة.

لقد دبَّ اليأس في قلوبنا، وظهرت سلطة جديدة تخفي الأصنام التي حطَّمها ذلك الرجل لقد عادت نار الكذب والخديعة توقد في مساجد الله.

عادت نفس الوجوه الفرعونية والقارونية التي عرفناها.

صاروا باسم رسول الله وخلافة رسول الله يضربون الناس بسوط الدين، وعدنا يا أخي نمشي في أزقة العبودية لنبني المساجد والقصور، القصر الأخضر في دمشق وقصور ألف ليلة وليلة في بغداد، ولكن هذه المرَّة باسم «الله».

ولا بد أن تعلم يا أخي أن واحداً منا وهو قريب وحبيب لذلك الرجل الذي جاءنا وهو «عليّ» كنا نأمل أن يكمل نهج الرسول، ولكنه قد لاقى الظلم والعدوان هو وأهل بيته وكان في مقدَّمة المعذبين والمحرومين، لقد حاربوه وغاروا على بيته،وخدعوا الناس، ووضعوا كتاب الله فوق الرماح عندما أراد القضاء على الظلم والقهر والفساد، فكانت النكسة والفشل من نصيب هذا الرجل.

هذا الرجل أصبح الضحية الأولى، وكانت زوجته هي بنت ذلك المبلِّغ والرسول الكبير، كانت تشتغل وتعمل كبقية المحرومات والمعذَّبات تتحمل الأذى والجوع مع أولادها من أجل الفقراء والمحرومين، وكان أولاده هم من حمل الراية الحمراء التي ظلّت تفور دماً حاراً نحو السماء على امتداد التاريخ.

وقد بقي هذا الرجل وحيداً بعد أن تفرَّق الأصحاب، وارتحلت الزوجة التي كانت تعينه، ولم يعد يملك غير بلاغته وفصاحته وخطاباته لتنقذنا وتوعّينا.

كان يصرخ من الألم لأجل ظلم جرى على إمرأةٍ يهودية، مع أنه لم يصرخ ألماً من ضربة خنجر قاتلة في المسجدً قائلاً: «فزت وربُّ الكعبة».

والآن يا أخي نعيش في عصر ومجتمع نحتاج إليه، فهو لا يقارن ببقية الحكماء، ولا يشابه العباقرة والعلماء الذين لم تتوفر لديهم كل الخصال التي وُجدت عنده.

إنه رجل الأبعاد الإنسانية كلها، وهو من الكادحين مثلي ومثلك، يكدُّ ويتعب وبنفس الأنامل التي خطَّت تلك السطور الملكوتية في «نهج البلاغة» كان يحفر بمحراثه الأرض اليابسة ليصل إلى الماء، ويصرخ وهو في قعر البئر: جرّوني إلى فوق وهو مغطى بالوحل، فينهمر الماء في تلك الأرض العطشى المحرقة، وقبل أن يتنفس الصعداء ويستريح يقول: طوبى للذين سيرثوني فإنهم لن يحصلوا على قطرة من ماء هذا البئر.

نحن الآن يا أخي في حاجة ملحَّة لمثل هذا الرجل يعيننا على الطريق الشاق المليء بالمصائب والويلات، لأن الحضارات والأديان والمذاهب تغيَّرت وانقلبت على عقبها، وصار الإنسان حيواناً مستهلكاً لا يعرف سوى ذاته، بدون عاطفة أو إحساس كأنه لا يحمل بين جنبيه قلب إنسان.

والآن إذا نظرت إلى ظاهر الأمور، ترانا أناساً أحراراً، لأن العبودية صارت من الماضي، ولكننا اليوم ابتلينا بعبودية جديدة أفظع وأتعس من الماضي، لقد نهبوا فكرنا وقيدوا قلوبنا وسلبوا إرادتنا. وخدعونا بشعارات كاذبة: الثقافة والفن وحرية الجنس وتقديس الشخصيات، وحرية الإستهلاك.

وبواسطة هذه العلوم استأصلوا الإيمان والإحساس بالمسؤولية من أدمغتنا ونفوسنا. والآن يا أخي! باسم المذاهب والفرق والسلالة والنسب، وباسم الأوطان والحدود، وحتى باسم الله، قطَّعونا ومزَّقونا قطعاً صغيرة ليسهل عليهم بلعنا.

صار الواحد منا يقتل أخيه باسم الدين والمذهب، لأن هذا يسجد على التربة وذاك لا يسجد عليها.

اثبتوا في نفوسنا النزاع والمشاجرة، نفوا روّاد الفكر الأحرار وأبعدوهم إلى أقطار بعيدة، وصاروا يلعبون دور الراعي الذي يرعى قطيعه.

أخي! . . لقد كنت تعرف سيدك ومولاك وكذلك الألم كنت تشعر به وتُحسِّهُ وكنت تعرف أنك كنت عبداً، ومن الذين استعبدوك؟

ولكنا اليوم ابتلينا بنفس مأساتك ولكن بدون أن نعرف الذين جعلونا عبيداً لهم، ولا نعرف من هي الجهة التي تسلبنا وتنهبنا، وقد وقعنا في شرك العبودية السوداء المشؤومة الرهيبة.

الحرمان والتمييز العنصري والظلم والجور في عصرنا أشد وأكثر من عصرك، ولكن بوجه ونقاب جديد، وأسلوب مختلف، ولكن اليوم، لن يكون لنا بصيص أمل إلاّ إذا عدنا واتَّبعنا منهاج ومدرسة ذلك الرسول العظيم ورفيق دربه وابن عمه، ذلك الرجل العظيم (عليّ) اللذان كانا نموذجاً وقدرةً لنا، وتركا لنا ثلاث شعارات وهي:

صدق المبدأ والعقيدة ـ الوحدة ـ والعدالة الاجتماعية.

محتويات الكتاب

مقدمة الناشر 3
قالوا في علي شريعتي 4
الإمام الخميني قال: 4
السيد أحمد الخميني قال: 4
السيد الخامنئي قال: 4
السيد موسى الصدر قال:
وقد صلى على جثمان شريعتي في دمشق سنة 1977م 4
الدين ضد الدين 6
الكفر 7
الشرك 7
عبادة الأوثان 8
السامري 8
الفرنسيون: 9
مشركوا مكة 9
ماهيَّة الدين الثوري 9
ماهية الدين الآخر التبريري 10
الدين أفيون الشعوب 11
المرجئة 11
الله والناس 12
أتباع الطاغوت 12

هيمنة دين الكفر على التاريخ 13
الربُّ والخالق 14
المدينة المنوَّرة رمز المجتمع المثالي 14
رجال الدين المجوس 15
الدين في إيران 15
نعم... هكذا كان يا أخي 19